الشيخ عبد القادر المغربي

(جانب مجهول من سيرته)

كان ذلك سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠ م) أي قبل أكثر من أربعين عاماً حيث كنت نزيل دمشق الشام مقيماً في فندق يطل على شارع بغداد [١] وكانت لنا ندوة في الفندق يغشاها ـ عدا أصدقائنا من دمشق ـ رهط ممن أنجبتهم بلاد العراق والشام وفلسطين ولبنان من المعنيين بالقضايا القومية سياسية واجتماعية . وفي أصيل يوم من تلك الأيام أقبل علينا كهل بهي الطلعة بادي البشر حسن العمة فأخذ مكانه بيننا وكان برفقة الشيخ زائر آخر من أبناء المدينة .

تحدّث الشيخ الينا بلهجة عذبة في بعض المسائل الأدبية ، وتساءل عن مميزات الشعر العراقي في جزالته وشدة أسره ، ورغب إليّ في تعليل نهضة الشعر الأخيرة ونبوغ النوابغ (حلة بني مزيد) (والنجف) وشعراء آخرين في العراق فأجبتـــه جواباً أعجبَ به وأقرني عليه . وقلت للشيخ : لا شك أن حرارة العاطفة وصدق الشعور من بواعث الإبداع والتجويد في نظم الأشعار .

ما كان ذلك الزائر أو العـــالم الباحث غير الشيخ عبد القادر المغربي رحمه الله . فإلى ذلك العصر ـ وقد مضى عليه أكثر من أربعين سنة ـ

---

(١) في سنة ١٩٢٠ م لم يكن شارع بغداد قد افتتح ، لعله يريد أن يقول شارع النصر . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعود أول معرفة لي به وبطبقة من شيوخ الأدب وأعلامه في دمشق وجمهرة من شباب العرب المعنيين بالشؤون القومية في الشام نفسها . وكنا نتنادي في مكاتب بعض الصحف وفي دور الكتب ومعاهد العلم ومنها المدارس المحسنية نسبة إلى مؤسسها العلامة السيد محسن الأمين العاملي ، وكنا نغشى أيضاً بعض الأندية وفي مقدمتها (النادي العربي) . وكان هذا النادي في الواقع منبراً يتعاقب عليه خطباء موهوبون وشعراء مجودون في تلك الفترة . وكانت تقام في النادي حفلات أدبية وتعقد اجتماعات سياسية ، هذا ولم ينشأ المجمع العلمي العربي بعد (وإنما انشىء بعد مبارحتي دمشق الشام إلى العراق بأكثر قليلاً من سنة واحدة ، ومعنى هذا ان (النادي العربي) أقدم قليلاً من (المجمع) من حيث التأسيس[1] .

مضت لنا إذ ذاك عهود جميلة وأوقات حميدة في الشام كنا نقطع الليالي بالقراءات والسماعات . والخلاصة كان ذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد غمرت العالم العربي يقظة انتظمت أقطاره وفي مقدمتها العراق وسورية وفلسطين ولبنان فراودتها أعذب الأماني وأحلى الأحلام في بعث الأمجاد القومية والحضارة العربية ، وكان من مظاهر تلك اليقظة أيضاً ضرب من التزاور والتعارف وتعزيز الصلات من سياسية واجتماعية .

لم يقدر لي بعد ذلك الاجتماع العابر بالشيخ المغربي في دمشق أن أتحدث اليه مرة أخرى ، فإنني بارحت دمشق إلى بيروت وتركت الداخل إلى الساحل . ولم يطل لبثي كثيراً بين جبل لبنان وجبل عاملة وإن كانت لي في صيداء ذكريات لا تنسى من وفاء أهلها ومحبتهم في تلك الأيام فعدت ثانية إلى دمشق الشام .

كانت دمشق إذ ذاك في شغل شاغل من السياسة . وكان شيوخها

---

(١) أنهى المجمع العلمي العربي بدمشق في سنة ١٩١٩ م . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وشبابها وزعماؤها معنيين بالشؤون القومية والنهضة العربية ، حق ان السياسة استنفذت مجهود الناس واستغرقت أوقاتهم في (وقائع المؤتمر السوري) وفي التظاهرات السياسية ، ولاحظت يومئذ أن شباب العرب المعنيين بالشؤون القومية قد ارزوا من كل ناحية إلى الشام كما تأرز الحية إلى جحرها ، فكان منهم فريق يمثل العراق ، وآخر يمثل فلسطين ، إلى آخرين يمثلون مختلف الأقطار العربية . وكان في طليعة من لقيناهم يومئذ من طبقة المغربي أو من زملائه السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار . وكان لقاؤنا في الجهة الغربية من (الجامع الأموي) حيث كان للسيد حلقة يملي فيها درساً في التفسير . ومن ثم أخذنا سبيلنا إلى شارع بغداد[1] المؤدي إلى محطة قطار الحجاز وقد احتفلوا قريباً بفتح هذه الجادة . وكان السيد رشيد يتحدث عن شؤون الساعة ويتناول حديثه قضايا الإصلاح الاجتماعي والسياسي وذلك قبل التئام (المؤتمر السوري) الذي اختير رئيساً له . وهو مؤتمر نادى باستقلال البلاد وحريتها وان سورية دولة مستقلة ذات سيادة (٨ آذار سنة ١٩٢٠ م) .

كانت دمشق حافلة بطبقة واعية مجهزة بضرب من الكفاية علمياً وعملياً . وعلى الإجمال كان أول لقائي بالشيخ المغربي بالشام في تلك الفترة أي في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩٢٠ م) . وكنت قد وصلت إلى الشام من الحجاز حيث ناهزت إقامتي في سورية سنة كاملة عدت بعدها إلى العراق فور احتلال الفرنسيين لدمشق كما فعل كثير من العرب المناوئين للاستعمار . وظلت الرسائل بعد هذه الفترة أحسن واسطة للاتصال بيني وبين الشيخ المغربي فقد رافقني بعض رسائله إلى بغداد في التاريخ المذكور ، وبعد ذلك إلى سنة ١٩٢٥ م . وقد حمل إلي بعض رسائله شباب قدموا إلى العراق

---

(١) يريد أن يقول شارع النصر . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحدوهم الخدمة في معاهد التعليم فكان لهم ما أرادوا ، وأدى فريق منهم واجبه على أحسن ما يرام . ثم حالت الشواغل والقواطع حتى عن المراسلة مدة طويلة ولم يقدر لنا الاجتماع إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية وذلك في القاهرة وفي دار المجمع اللغوي سنة ١٩٤٨ ثم في دورات مؤتمرات المجمع السنوية المتوالية إلى أن وافاه الأجل المحتوم وكانت فرحة اللقاء في القاهرة عظيمة بعد ذلك الفراق الطويل الذي دام نحواً من ثلاثين سنة .

شاء زملاؤنا في مجمع اللغة العربية في القاهرة أن انضم إلى حظيرتهم سنة ١٩٤٧ حيث كان الشيخ الزميل عضواً عاملاً في المجمع قبل ذلك . وفي أول لقاء لنا استعرضنا ذكريات دمشق الشام وعهودها الحميدة . وما دار بيننا من المراسلات بعد ذلك . استعرضنا ذلك في قاعة المؤتمر اللغوي وفي مكاتب المجمع وكنا لا نفترق في أعقاب كل جلسة من جلسات المؤتمر إلا لنلتقي في ناد أو فندق أو في حفلة أو دعوة ، وقد لاحظت ان روح الصداقة والألفة والمحبة من سجايا الشيخ القوية الراسخة فيه فان له في بلاد العرب ـ دع عنك دمشق ـ اصدقاءه الكثر . ولا شيء أحب اليه من زيارة أصدقائه ومعارفه ولا بد للشيخ أينما كان أن يأوي في سهراته إلى ناد يتجاذب مع من فيه أطراف الأحاديث . وكم حدثني عن تلك السهرات الجميلة .

ما كان يدور في خلدي ان دورة المؤتمر اللغوي التي عقدت صبيحة الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٥ (٢٩ كانون الأول سنة ١٩٥٥) ستكون آخر دورة يشهدها الشيخ ، فبينما كنت متأهباً للذهاب إلى المؤتمر اللغوي في مقره من القاهرة ابلغني احدى كريمتيه وهم نزلاء الفندق الذي اقيم فيه قائلة إن اباها نقل إلى المستشفى لأن رجله أصيبت ، وقدمه زلت . وقلت لها سأزور المستشفى بعد قليل ، ثم اتجهت إلى دار المؤتمر ومن هناك ذهبت إلى المستشفى وهي مراقب المجمع الذي شاطرني كثيراً من الأسى في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحادثة . ويقع المستشفى الذي نقل الشيخ اليه ويدعى (مستشفى الجمهورية) في شارع عابدين . دخلنا على الشيخ وهو مسجى في سريره ، لم تفارقه بشاشته ولطف سياه ، وأخبرنا أن الحادث لا يعدو أن يكون رضاً بسيطاً وانهم لم يجدوا كسراً في الساق . والواقع أن الإصابة كانت أبلغ من ذلك . وهكذا دعونا له بالشفاء وتمنينا له العافية . وهكذا لم يشهد الشيخ إلا الجلسات الثلاث الأولى من دورة المؤتمر المذكور . واضطره الحادث إلى الغياب عن بقية الجلسات . وكان له في الجلسة الثالثة من تلك الدورة بحث لغوي موضوعه (الفرنسية وكيف دخلت إلى العربية) ألقاه بنفسه . أما بقية بحوثه التي أعدها للمؤتمر فقد القيت بالنيابة عنه ومنها بحث عنوانه (أصل كلمة التضحية) . ولا بد لنا من القول ان المغربي كان يعالج الموضوعات اللغوية في بحوثه التي يعدها للمؤتمر غالباً ، وقلما عالج بحوثاً أدبية أو ثقافية فيه . فالمغربي والحق يقال عالم بحمي بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ولذلك كانت مصيبة المجامع اللغوية بفقده فادحة بل كانت ثلمة يصعب سدها . فانه انتقل إلى جوار ربه بدمشق في ٢٧ من شوال سنة ١٣٧٥ هـ الموافق لليوم ١٩٥٦/٦/٧ م بعد جهاد طويل وصبر جميل تغمده الله برحمته .

(بغداد) محمد رضا الشبيبي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net